

تجليات الثقافة السياسية في الرواية

Manifestations of political culture in the novel

أ.د عبد القادر فيدوح

afidouh@hotmail.com

جامعة سعيدة، الجزائر

ملخص:

تقوم مصفوفة الدراسات الثقافية على ظاهرة التمثيل الثقافي؛ من خلال مستويات العملية التواصلية بين الواقع والتمثيلات النمطية التي تمثلها السلطة، بكل أشكالها الشمولية، التي تضع المجتمع تحت تأثير التابع، وفاعلية تأييده القسري، ابتغاء اقترانه بقوة النفوذ المتماذي في الغواية، سعيا إلى التحكم في تجليات الأنساق الثقافية والاجتماعية بحضور تمثيلي؛ وغالبا ما تكون هذه الأنساق تحت طائلة الانصياع للصلاحيات، التي تتخذ من الوعي الاجتماعي بكياناته موضوعا للاحتواء والاستئثار، وهو ما أفرز حضور الضمير الواعي - أو ما يطلق عليه في الفكر الماركسي بالمتقف العضوي - لمواجهة استحكام هذا النفوذ، وهو "المتقف الفاعل" الذي يقوم بدور تنوير الوعي، وتمكين المرء من إدراك ذاته، حتى يكون ممثل المجتمع ثقافيا، وموجهه الفكري، لمناكفة نفوذ الفعل السياسي؛ المرتبط بالنسق الكلي لأية إيديولوجية.

الكلمات المفتاحية: ثقافة، سياسة، روية، سلطة، واقع، سرد

Abstract

The cultural studies matrix is based on the phenomenon of cultural representation. Through the levels of the communicative process between reality and the stereotypical representations represented by power, in all its totalitarian forms, that puts society under the influence of the subordinate, and the effectiveness of its coercive support, in order to associate it with the power of prolonged influence in seduction, seeking to control the manifestations of cultural and social systems with a representative presence; These systems are often subject to submission to authority, which takes social awareness in all its faculties as a subject of containment and exclusivity. Enlightening awareness, and enabling one to realize himself, so that he can be a cultural representative of society

key words: Culture, politics, vision, authority, reality, narrative

سردية السياسة موضوعاً للدراسات الثقافية

نحن أمام مصطلح بالغ الأهمية في دراسات السرد السياسي الثقافي، وهو مصطلح [التمثيل]، سواء من الناحية الثقافية/المعرفية، أو من الناحية السياسية، فهو من هذا الجانب يؤدي وظيفة الممثلين Representatives حين يحاول السائس التمثيل بالتعهد، من منظور أن الفاعل في التمثيل يقوم بدور التفويض، أو التحويل على انشغالات ذوي الحقوق في البنية التحتية، أو الوصاية عليهم، على وفق جملة من الأعراف والأنظمة من اللوائح والقوانين، بما يرمي إليه هذا التوكيل من غاية نبيلة، بعيداً عن الفوز بالاغتناء، والميل إلى الظفر بالسخاءات التفاضلية، التي من شأنها أن تحدث إخلالاً بالنظام، وتبايناً في الاختلافات، على الرغم من أن موجبات التمثيل - في مثل هذه الحال - تنتج خطابات وتخطبات تنازلية؛ حينما تكون صفات التمثيل مُتهَيَّكة، وتشوبها المخاتلة والمداهنة؛ الأمر الذي يوسع من دائرة المعنى الداهن بالشكل السائد لخطاب أيديولوجية السياسية التي تقاطع مع الرؤية الاجتماعية، وبألفاظ دالة على أكثر مما وُضع له السياق الجدير بالثقة. وربما بفعل ذلك يختفي الخطاب المجدي في مضمرة النزعة الفردانية لتمثيل السلطة؛ من منظور المصلحة التي من شأنها أن تستأثر بتضليل الحق، وتمويهه؛ بدافع تنفيذ ما يلزم ممن يمثلون للأوامر، تجاوباً مع رغبة السلطة؛ لإرساء عزيمتها، والكيد لكل من سؤل له الخطار، وزينت له معالي الهمم، ووجهة المعزة والعظمة إن اختال، وتصلّف، أو تطاول على السلطة؛ فإن ثمن هذا الميل قد يؤدي بصاحبه إلى الإجلاء والتشريد؛ "لأن ثمن التمرد هو الطرد من وسائل السلطة، هكذا يظل كل أعضاء الطائفة سجناء داخل لغة طائفتهم، كما يفرض الحق في استعمال لغة الطائفة المسيطرة، واجب السكوت على غير أعضائها".¹

وتأسيساً على هذه الحال، يكون مطلوب الرؤية السردية الحرص على تبليغ الخطاب النافع؛ فيما يمت إليه بصلة من إخطار بالقصدية والمقامية، رفعاً للبس الوارد في إرادة الباث، وتبئته الحقيّة؛ وإذا كان الأمر كذلك مع السرد، بوصفه موضوعاً للتخييل، فإن تسريد الخطاب السياسي على وفق رغبات السلطة بقياداتها، مرتبط "ارتباطاً وثيقاً بالحفاظ على البنيات الاجتماعية والسياسية القائمة، ولهذا كان من مصلحتهم - على المدى القريب والبعيد - الدفاع عن الإيديولوجية وحمايتها".²

وتبدو الرؤية السردية جلية ضمن منجزاتها التحقيقية، كونها تقوم على إمكانية فهم العلاقة بين الوجود الوجداني بوصفه قبلة لتحقيق المطالب التوجيهية، والإرشادات القيادية بمفاصل الغايات والمقاصد؛ في ظل غمرة تباين هذه

¹ آلن غولد شليغر، نحو سيميائية الخطاب السلطوي، ترجمة، مصطفى كمال، مجلة بيت الحكمة، تونس، عدد 5، 1987، ص 137

² نفسه، ص 137.

المطالب المتجاذبة، حينئذ تتحول الجهات المحبّطة إلى اتخاذ ما يلزم لمحاربة قواعد السلطة، نظير عدم الوفاء بالواجب، وتحاول بذلك التماس لغة الحوار بمطالبة تنازل أجنحة صقور التسيير عن مصالحهم الخاصة، خدمة للمنفعة العامة، فضلا عن مكافحة الفساد، الذي يستشري في واقع بات يتأوّه من معاناة سوء التسيير، في ظل صراعات اجتماعية وسياسية ناجمة عن عدم التوافق بين السائد بإرادة القوة، والمذعن باضطرابات الانكسار، يناسبهما التضارب حول الثراء من جهة الولاء، أو البحث - من مناهضي الإفلاس - عن جدوى الموارد المتاحة التي تذهب سدّى، بلا ثمرة، أو طائلة، ومن هذا الصراع تنسج رغبات السرد من كلا الطرفين، كل بحسب مبتغاه، فإذا كانت الشخصيات السياسية محتالة في تحولاتها عبر الفضاء السياسي، فإن الشخصيات في العمل الفني غالبا ما تكون صادقة في مسار تحركاتها على مدار ما ينتابها من قلق، وكأنها تعكس واقعا بحجم مسيرة الفنان، والتحامها بالواقع المليء بالتساؤلات والصراعات المتجاذبة، التي تعكس وجدان الفكر، والفكر المضاد، الرأي والرأي الآخر. وفي هذا الشأن يرى هيدغر Heidegger أن الفنان "يجلب الوجود نفسه إلى ضوء الحقيقة"، ويطرق الأفكار نفسها التي يطرقها الروائي في تضاعيف أفكار شخصه، من خلال ما يمليه عليهم من نسق حجاجي، ورسم مواقف حاسمة؛ لمعالجة بعض الإشكالات والآراء؛ ولتلافي النقص في بعض ما يعترض سبيل المجتمع وإمكانية إصلاحه، سواء ما كان منها ظاهريا أو ضمنيا، حسب ما تبرره الغاية المستهدفة، وملكة التفكير، في اتخاذ ما يناسب من حلول عقلانية. وفي هذه الحال نجد أنفسنا ننسب للسرد نوعًا من وعي قوة الحدس،³ بوصفه الطريق الأسلم الذي من خلاله يمكننا الوصول إلى الحقيقة.

التمثيل السردى السياسي

ولكي نوثّق هذه الرؤية، بما يلزم من توضيح في هذا الشأن، يجدر بنا أن نعرض بعض السرد، ذات الصلة، كونها تؤدي وظيفة التبليغ، واستجابة التأثير من خلال بعض الأعمال التي ناوت المؤسسة المتجذرة بالنفوذ والتوجيه من شبكة الشخصيات السردية؛ المواربين للدولة العميقة؛ على نحو ما نجده - على سبيل المثال - في أعمال نجيب محفوظ، أو أعمال عبد الرحمن منيف، أو حنا مينة، وغيرهم كثير ممن وظفوا ثنائية صراع المثقف المناهض الذي يواجه السلطة، ومقاومة الدولة العميقة، سعياً إلى تحقيق مشروع النهضة، وقد برز ذلك بوضوح بعد هزيمة يونيو 1967 المشؤومة، التي هزت كيان الذات المتوجعة مسبقاً؛ منذ أن تبنى نجيب محفوظ موضوع الإقصاء والتهميش في "الرص والكلاب 1961"، وتبع ذلك رواية "ثرثرة فوق النيل 1964"، مع الشخصية الرئيسة "أنيس" في مواجهة مع النظام، وقد تفاقم هذا الإحساس بالغربة بين المثقف والسلطة، مع تزايد الاستبداد المباح، والتعسف السياسي الجائر، وبغي حاشية السلطة، وطغيانها على النفوذ والمصالح، وهو الأمر الذي أسهم في تكريس الوعي الشقي، بوصفه حرّاً بالحلم، "منعتقا...!" بروابط السلطة، حتى أصبح المثقف - لسان حال الضمير

³ ينظر، عبد القادر فيدوح، التاريخ والسياسة في الرواية الجزائرية، دار ميم للنشر- 2022، ص 7

الحي للوطن - غريب الوعي، الذي تعزز وجوده في رواية عبد الرحمن منيف " شرق المتوسط"، بما تتضمن من معان عميقة لمعنى الانشقاق بين أساليب التحرر، وتعويقها بطرائق الاستبداد، فكان من شأن هذا التباين، محاولة التخلص من القيود التي تمارس على الذات الواعية، المناهضة، وكأن "شرق المتوسط" وإمكانية توظيف قدرة الفرد على مماسة نشاطه من دون تضيق أو قسر، هما خطان متناقضان تتحكم فيهما دوايب السلطة.

وإذا كان تمثيل السلطة قائما على الضبط بالهيمنة، وعلى التحكم في زمام الأمور بالقدرة العسقية في كل مفاصل الحياة اليومية من كافة جوانبها، وبكل السبل المتاحة التي تكفل الإذلال، فإن تمثيل الغريم - من الشخص المعارضين في البرنامج السردى - يؤسس رؤيته على رفض الواقع السياسي الملزم بثقافته قواعده الاستبدادية، ويواجه مخاتلة هذا النظام بأناة؛ أي بما يحدث في المخيلة؛ لمجابهة خطاب المصادرة، الذي صاغته السلطة، وقَلْبِهِ إلى خطاب يُرسخ صوغ الثقافة المتبصرة، وبذلك يتم تحويل تلقي الكبت، بوصفه منخرطاً في البعد السياسي، إلى بعده التوعوي، التحريضي، نظراً إلى غياب الشفافية؛ وكأن الروائي يقرأ الكبت قراءة عميقة من خلال محاوره شخصه في منظور تعدد الأصوات، المتنصّلة من أحادية المنظور في الخطاب والتخاطب، بواسطة مرئيات هذه الأصوات المتعددة، امتثالاً لرؤية السارد [البوليفونية Poliphonie]، بوصفها تطلعات إنسانية، مشفوعة بتعدد وجهات نظر الشخص، واختلاف الرؤى الإيديولوجية؛ وهنا يصبح النمط السردى في المحتوى أمراً معقداً؛ بالنظر إلى ما تكشفه علاقات "تعدد الأصوات"، القائمة فيما بينهم من تنوع في دلالات الملفوظات الصوتية؛ لإبراز اللاتجانس في المواقف، التي تستدعي الكشف عن السياق الاجتماعي، والثقافي، والسياسي في زاوية نظر السارد، وبالكيفية التي يتم بها إدراك المبتغى. وإذا كانت كل رؤية سردية مرهونة بتشمّلات تتضمن موضوعاً بعينه، وبأساليب فنية، فإن ضلوع الصوغ السياسي في رواية "الزيتي براكات" لجمال الغيطاني قد أكسب الرواية بعداً سياسياً في عمق ما رآه جيران جينيت من دلالات تبئيرية، يسقطها السارد على الواقع المعاش في المضمر، رغم أنها في ظاهرها ترسم مرحلة تاريخية، تُعنى بسقوط دولة المماليك التي استشرى فيها الفساد بجميع أشكاله، السياسية والاجتماعية، والثقافية، وبكل ما تشير إليه دلالات الإسقاط على واقع الحال، وبما يربط الماضي مع الحاضر، وهو ما كان يعنيه جمال الغيطاني، الذي وصف النضال في صورة ما ينطلي عليه أسلوب الكبت. ويمكن أن نسوق في هذا الشأن الكبت الذي حام حول الشخصية الرئيسة مصطفى سعيد "دون جوان لندن" في [موسم الهجرة إلى الشمال] على ما قام به من أفعال تجاه الأمتولة النفسية المسؤولة عن الضمير الجمعي، التي أطلق عليها علم التحليل النفسي بـ "السببية اللاشعورية" من خلال الصراع النفسي؛ بما يحتويه من لجّة الكبت الرابض في لاوعي السارد، حين وظف مصطفى سعيد دلالة الانتقام من الغرب في صورة ما روته الرواية، متمثلاً في أيقونة الثأر من الغرب، فلم يجد هناك من بدّ غير العلاقة الحميمة المتنوعة مع خليلاته القريبات منه في أثناء وجوده في لندن، بعد أن حول بيته إلى مَبْغَى كي ينال من مؤنساته بوصفهن غريبات، دائنات، متخذات منهن فريسة له، كما جاء في قوله: أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في فراشي، ثم أسير إلى صيد آخر... غرفة نومي صارت ساحة حرب، فراشي كان

قطعة من الجحيم، أمسكها فكأني أمسك سحائبًا، كأني أضاجع شهابًا، كأني أمتطي صهوة نشيد عسكري بروسي.... أخوض المعركة بالسيف والرمح والنشاب⁴

والروائي في هذه الحال، يتحصّن بالممانعات، ويتأبّى عليه مواكبة المؤسسة الرسمية، كما يستحيل عليه مساهمة ما تسخره من ضوابط، ومن هنا يرفض أن يبقى أسيرًا لها، وهو يعلم أنه سيواجه تسلطًا إما بالعنف المادي، أو بالعنف الرمزي؛ المراوغ بالتلطف في اللامقول - بصورة غير مباشرة - سعيًا إلى تنفيذ الأوامر بطريقة المجاز، وعلى الرغم من ذلك يبقى المعارض عثرًا في وجه السلطة، وحائلا دون كفالة المواقف الرسمية لها، أيا كان نوعها بما فيها سلطة الاستعمار، كما في رواية "اللاز" للطاهر وطار مع شخصية "حمو" الذي أعرض عن الاستسلام للواقع بكل مواصفات الاضطهاد، برفضه حماقات الاستعمار الفرنسي للجزائر، وعذاباته، داعيا إلى الثورة والانتفاضة، بوصفها السبيل الوحيد للخلاص، والبحث عن إثبات هوية الذات الوطنية بوعيه الرفض.

وتبرز صفات ملفوظات الرفض - أكثر - في شخوص الرواية التي واجهت الأنظمة الشمولية، كما وقع مع الروايات الإخوانية في السنوات الستين من القرن العشرين، المنتسبة إلى الإخوان المسلمين، بخاصة مع المثقفين الذين يعبرون عن عدااء كامل للمبادئ والإجراءات الناصرية، فضلا عن الشخصيات الماركسية، التي كانت تجهر عداؤها للنظام الناصري. ومن القواسم المشتركة بين رافضي شخصيات الإخوان، وشخصيات الماركسيين، ما يتجلى في أن كلا من تلك الرائحة لإبراهيم والشحاذ وميرامار محفوظ تتضمن مثنقًا واحدًا، تبنى رفض سياسات النظام، وجهر برفضه هذا كان بمثابة الصد الحائل لقواعد النظام، وبغض النظر عن السياقات المختلفة التي تعبر فيها كل شخصية عن رفضها، فإن الفرق - مثلا - بين رافضي في رواية محفوظية مكتوبة قبل عام 1970 كفوزي في ميرامار، ورافضي في رواية محفوظية مكتوبة بعد 1970، كسالم في المرايا، أو حلمي في الكرنك لا يتجلى في درجة رفضهما، أو شكله، بقدر ما يتجلى في الطريقة التي عبر بها محفوظ عن ذلك الرفض. ففي الروايتين المنشورتين عام 1972 و 1974 على التوالي، يغدو محفوظ أقل رمزية وغموضًا، وأكثر مباشرة وتعيينًا لشكل المعارضة التي يظهرها أبطاله. ولا شك في أن ذلك يعود إلى توجّهات نظام السادات، الذي شجع الكتاب على نقض أسس الناصرية⁵.

واعتبارًا لذلك، أظهر نجيب محفوظ - بالمنظور السردى والإيديولوجي - رفضه للوضع السياسي بشكل أدق منذ 1958؛ حين أصدر "أولاد حارتنا" التي نال بها جائزة نوبل، بعد اهتمام الرأي العام العربي بشغف قراءتها؛

⁴ الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، 1981، ص 33 - 37

⁵ ينظر، سامح إدريس، المثقف العربي والسلطة، بحث في روايات التجربة الناصرية، دار الآداب، 1992، ص 97

لما تحتوي عليه من جدل سياسي، وديني، فكائكه النقد المعارض بأشد عبارات الخطيئة والافتراق، بالنظر إلى أنها تجسد رموز النظام في حينها، بما في ذلك المساس بالمؤسسة الدينية؛ الأمر الذي أجبر النظام الحاكم بإمرة جمال عبد الناصر على انتداب مهمة تكليف الأزهر برئاسة الشيخ محمد الغزالي للنظر فيما ورد في الرواية من مواقف سياسية، وإساءة للذات الإلهية، وقد جاء في بيان الأزهر - بعد فحص الرواية وتقصي تضاعيف ما فيها يبحث مُستفِض - حرمة تناولها بالقراءة، ومنعها لدواعٍ سياسية قبل المجلبة الدينية.

وتزايد صوغ أفق السرد السياسي مع جيل ما بعد السنوات الستين من القرن العشرين، بعد أن أصبح الروائيون أكثر اتقاء من الرقيب بتوظيف أساليب فنية، يطوّقها الصوغ الكامن في لبوس النسق المضمّر، وبدلالات يغمرها غموض مجازف، يصعب التفطن لموضع معناه، والتنبه إليه بيسر؛ وانبرى الروائيون بالرد على التعسف في مواقف النظام بتوظيف المضمّر في السرد السياسي إلى الاحتياط بالحذر، وإلى التنابد الذي يصل حدّه في اللامقول بين السارد ومؤسسة الضبط، وفي هذه الحالة كان السرد متأسيا بالواقع المرير به، وقد أنتج النص السردى من داخله كيانه المعبر عن مضامين الأحداث اليومية الملتبسة سياسياً. ومع ذلك كان الوضع السياسي حاضراً بالجراءة في متن السرد؛ حين يتكشف مثالب المنظومة السياسية، ويتفصّل أسرارها، وفي كلتا الحالتين يجعل من الرؤية السردية مميزة بإرشاد الوعي.

لقد كشف خطاب السياسة في تضاعيف الرؤيا السردية - من خلال تتبع مضامينها - ما كان جاثماً من ضيّم اجتماعي في أحكامه، وبُعْي في ممارساته، وهي صورة تعكس أمثولة ضوابط السلطة في معظم الأنظمة الشمولية، وفي سبيل ذلك كان الروائي يتعاطى مع مجريات هذه الأحداث والوقائع بأساليب الإرشاد إلى تبصير الرأي، وسنّ طريقه؛ بما يمكن أن يسهم في التغيير؛ لأن الرواية - بحسب رأي ميشال بوتور - "التي كانت تعبيراً عن مجتمع يتغيّر، صارت تعبيراً عن مجتمع يعي تغيّره"

إن كشف خبايا الإخضاع والاستعباد في روايات المنتصف الثاني من القرن العشرين - على وجه التحديد - يعود إلى أنماط الحياة المتنافرة في ظل ضغينة البيئة السياسية، بصورة تلمّح إلى العداوة بين السائد، ومن هم في حكم سلطته، لذلك يحاول الوعي السردى سبك النص على مستوى الأبعاد الدلالية، داخل الملفوظات السردية لمواجهة حليف السلطة، بحسب تملُّك الذات المقاومة من صحو ثقافي، وفهم اجتماعي، في ظل العلاقات العديدة، التي تربط الذات الفاعلة بالمؤسسات التنفيذية، سواء على مستوى الخطاب، أو على مستوى السيرة السلوكية، ضمن تلازم المقولات المتشاكلة، التي تنبني على مبدأ التمثيل، وهو ما لم يتحقق بالصورة المجدية بالنسبة

إلى المجتمع المدني، بوصفه أحد أهم عناصر المكونات السياسية؛ ضمن سياق الروابط المتفاعلة بين الحاكم والمحكوم، وقد نجد - على سبيل المثال - رواية القاهرة الجديدة (1971) التي بين فيها نجيب محفوظ حقبة تاريخية في السنوات السبعين من القرن العشرين، التي كانت غامرة بالتيارات المذهبية والدينية المتعددة المشارب، تعكسها شخصيات بقناعاتها الفكرية والسياسية، فشخصية الطالب "علي طه" يعتنق التيار الماركسي بقناعاته الشمولية، وتروج لهذا التيار الذي يجمع بين السياسة والاجتماع، في حين ترسم الشخصية الثانية الطالب "مأمون رضوان" الروح الدينية، الذي يحاول ما في وسعه - من خلال هذا الانتماء - الترويج للحل الأمثل القائم في التعاليم الدينية، بوصفها السبيل الوحيد للتعاش السلمي والعدالة الاجتماعية. أما شخصية البطل "محبوب" (الثالثة) فهي لا تجسد إلا صورة الضمير المخاتل، والمخادع، لذلك افتقد النزاهة، وآثر المداينة والمراغة في علاقاته الاجتماعية على حساب الإخلاص والوفاء للروح الوطنية.

لقد أثبتت الرواية في هذه المرحلة جدواها بتجاوز وصف الأحداث، ورصد تلاحق الوقائع، إلى ما يمكن أن نطلق عليه بترصد مضامين هذه الأحداث والوقائع بالتعاقب، وقراءة ما في مضمراتها من دلالات، تفيد راهن طبيعة العلاقات الاجتماعية، بعيداً عن مساهمة أنماط الحياة اليومية المعبّبة، في نظرتها المغلقة، كونها لا تتساق مع البراديجم Paradigm بأطروحاته الجديدة، وفيما ينتج الواقع من حالات وتحولات مرتبطة بالمعاني المتفاوتة بين المعمول والمأمول في هذه الطروحات؛ الأمر الذي يجعل الوعي النابض متحرراً في مواقف هذه الطروحات؛ المشفوعة بجوهر التأمل في الحياة عبر مساعيها المتقدمة، غير المقيدة بالتبعية؛ من حيث لا معرفة خارج شروط قوة قواعد السلطة ونفوذها. ومن هنا ترفض العوامل المعارضة تقول بالافتراء، أو نسق الهيمنة، أيّاً كان المنطلق؛ وهو ما خلق علاقة عديمة الجدوى، كما في الروايات التي وظفت شخصيات تابعة لمنظمة الإخوان المسلمين المعارضين لنظام جمال عبد النصر بصورة أدق، من خلال ستمتها النضالي، وشعارها المتناسك بالدفاع عن العدالة والمساواة، والحرية، وتبعاً لذلك "تنتمي معظم الشخصيات الروائية الإخوانية إلى فئة المثقفين الذين يعبرون عن عداً كامل للمبادئ والإجراءات الناصرية، كما أن الشخصيات الماركسية؛ ولأسباب غالباً ما تكون مغايرة لتلك التي يعلن عنها الإخوان تجهر بعض العدا للمؤسسة الناصرية، وهو عدا قد يصل - في أحيان قليلة - إلى حافة الرفض المطلق لتلك المؤسسة⁶؛ من دون استجابة النظام - باتجاهه الاستبدادي - الممانع لمطالب هذين التيارين بكل ما أوتيت من أسباب الحُجج والاستدلالات، على غير ما يرنو إليه الخطاب الفكري بسؤال الفحص، ومن ضمنه الخطاب السياسي الخالص بمواقف تبعث على سؤال النقد؛ وإعادة المكانة للعقل؛ بغية تجديد المفاهيم؛ وعلى الرغم من ذلك فإن إشراك المجتمع المدني قد وجد في النظام الرفض المطلق؛ لأي مسعى في الاجتهاد لبعض المواقف، وفي

⁶ سامح إدريس، المثقف العربي والسلطة، بحث في روايات التجربة الناصرية، ص 97.

ضوء ذلك اضطر وعي السارد في النص الإبداعي إلى مجابهة خطاب السلطة السياسية، والإيديولوجية، والإعلامية، قبل مناهضته خطاب السلطة التنفيذية؛ لأن السلطة - بحسب رأي رولان بارت - تبدو متعددة الأوجه، متسعة في الزمان، ومنتشرة في المكان، وإذا كانت السلطة متعددة في الفضاء الاجتماعي، فهي بالمقابل ممتدة في الزمان التاريخي، وعندما نبعتها وندفعها هنا، سرعان ما تظهر هنالك؛ وهي لا تنزل ألبتة. قم ضدها بثورة بغية القضاء عليها، سرعان ما تنبعث وتنبث في حالة جديدة، ومرد هذه المكابدة والظهور في كل مكان هو أن السلطة جرثومة عالقة بجهاز يخترق المجتمع، ويرتبط بتاريخ البشرية في مجموعه⁷. من حيث كونها رسمت أبعاد طموح المجتمع رسمًا يؤول إلى السياسة القمعية التي كانت تمارس ظاهرة إفشاء خيبة التطلع، وانكسار الأمل، وترسيخ مرارة التشرد والمنفى، لذا تبدو الشخصيات المناهضة للسلطة في موقع صراع مستمر، مع قوى الأنظمة الشمولية، وأتباعها، في أثناء ممارسة القمع والرقابة، والأمثلة على ذلك كثيرة في الروايات التي شخصت مثل هذه المواقف، كما في "فرسان الأحلام القتيلة" 2012 لإبراهيم الكوني، التي صورت نظام الاستبداد بالتحكم في زمام أمور الناس بقبضة أمنية صلبة، أو كما في رواية "الكرنك" (1971) لنجيب محفوظ، التي أظهر فيها السارد استبداد السلطة، والتلاعب بمصير المقهورين على لسان شخصية حلمي حمادة، أو على نحو ما نجده عند الروائي العراقي أحمد خلف في روايته "تسارع الخطى" التي وضعت المتلقي في حيرة مع حيثيات الخيوط المتسارعة لتغريب المثقف، وإدخاله في دوامة العبثية السريالية التي مورست على الواقع المتسبب، في حالات كثرت فيها الاختطافات، وجرائم القتل، والنهب، والكشف عن مآسي المثقف، كل ذلك يحدث أمام العين الساهرة، أمن المنظومة السياسية لحكومة العراق فيما بعد 2003، وغير ذلك من الروايات التي أسست لهذا التوجه الرفض منذ جماعة تنظيم الضباط الأحرار في 23 يوليو 1952، التي أسفرت عن عزل الملك فاروق، فعارضتها أعمال روائية كثيرة بخاصة مع ثلاثية نجيب محفوظ الصادرة بين عامي 1956 - 1957، وتلتها جملة من الروايات المناهضة للأنظمة الشمولية مثل، رواية "العسكري الأسود" 1962 ليوسف إدريس، وغيرها من الروايات المصرية الغزيرة، كما تجلّى الاهتمام بالمواقف السياسية من الروائيين في شتى البلدان العربية، حيث نصادف المقامة في الرواية الجزائرية - مثلاً - يتشاكل مع نظيراتها في الكثير من الروايات العربية، مثلما صدر عن الروائي عبد الحميد بن هدوقة في "ريح الجنوب" (1970)، التي تحدثت عن البؤس والشقاء في المنظور الاجتماعي/ السياسي، وأعمال الطاهر وطار التي غطت تاريخ التطورات الحاصلة في الجزائر منذ ثورة التحرير إلى استقلال الجزائر، أو كما في روايته "اللاز" (1974) على الرغم من أنها تركز على رصد الأحداث التاريخية، غير أن صلتها بالطابع السياسي مترابط باستحكام، وروايته "الزلال" (1974)، التي رسمت مصير الشعب الجزائري في ظل الواقع الممزوج بالرؤية السياسية الاشتراكية، وكذا مع روايته "تجربة العشق والموت في الزمن الحراشي" (1980)، وتشكل هذه الرواية من سابقتها (اللاز، والزلال) الانتفاضة السياسية ضد الاستعمار، ومطالب التحرر من ربة الإقطاع والاستبداد، وغير ذلك من الروايات

⁷ رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، 1993، ص 13

الجزائرية بعد الألفية الثالثة على النحو الذي نجده مع الروائي أمين الزاوي والحبیب السايح، ومُجد ساري في روايته [الغيث] التي تبدّى فيها الصراع السياسي بين أصوات عديدة، مثلتها على وجه التحديد شخصية رشيد حلموش بتوجهه الإسلامية ذي النزعة الطائفية، الشيعية، كما جاء في قوله: "في الحقيقة تخلصنا من بذرة الشيوعية بإذن الله، وستنبت بذرة الإسلام"⁸، في حين ترى الشخصية الجامعية قدور بن موسى أن "الإنسان يحتاج أولا إلى الحرية... وبدونها لا حديث عن حضارة، ولا عن وعي مجتمع، تسوده العدالة والرفاهية المادية"⁹، ولم يتوقف الأمر عند حد تناول الموضوعات السياسية في الجزائر، بل تعدت رواية الغيث ذلك إلى تناول الأحداث السياسية بشكل مفصل في الكثير من الأفطار العربية، على نحو ما انتقده السارد لسياسة جمال عبد الناصر في قوله: مات عبد الناصر الشيوعي الذي قتل السيد قطب، وها هو رفيقه الوفي يخلق به في قاع جهنم، ومعهما سينتهي عصر الشيوعية - إن خبرك فال خير - سينتصر الخميني ويقيم دولة إسلامية، حينذاك سترون الخير والعدل بأعينكم¹⁰

ومع أحداث سنوات العشرية السوداء التي مرت بها الجزائر في بداية السنوات التسعين من القرن العشرين، تعاطى كثير من الروائيين مع موضوع العنف السياسي، الذي جرّ البلاد إلى ابتلاء درامي، خلّف آثارا اجتماعية مُفجّعة، وجروحًا لم تندمل بسهولة، عبّر عنها الكثير من الروائيين، نظير رواية الطاهر وطار "الشمعة والدهاليز" (1995)، التي أدانت السلطة السياسية، وتقاطعت، أحداثها، وتشابكت وقائعها، مع رواية "سيدة المقام" (1995) لواسيني الأعرج، في مسمى شخصية مريم التي لم يبق لها من الوطن شيء إلا الأمل، وكذا في رواية "ما تبقى من سيرة لخضر مريوش" (1983) من خلال تتبع شخصية لخضر مريوش السياسية، والأمر نفسه مع الروائي الحبیب السائح في زمن النمرود (1985) التي قبلت بالرفض والمصادرة من قبل السلطات التنفيذية، وفي روايته، أيضا، أنا وحيّيم (2018)، ومُجد ساري في "الورم". وتحدث لنا عز الدين جلاوجي في رواية "رأس الحنة" عن زمنين متناظرين في تاريخ الجزائري الثوري والسياسي؛ بوصفٍ سرديٍّ مركب من حدثين، الأول رصد فيه وضع الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي بسياساته الغاشمة، والثاني عن مرحلة سوء التسيير السياسي بعد استقلال الجزائر، وهما حدثان مركبان، الأول منهما يوافق الثاني من حيث المبدأ السياسي في وصف الطغيان، وكلاهما يكمل معنى السياسة المقتربة بالذنب، وكأن أحداث الثاني تجري مجرى التكملة للحدث الأول من حيث الخطيئة؛ مع فارق في المعبّة، والذريعة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه في هذه الرواية بسياسة "تتميم المنقصة السياسية"، لذلك قال [صالح] الشخصية الرئيسة في الرواية، الذي تكبّد الأمرين في الحقبين، نظير ما جاء على لسانه، قوله متحسرا:

⁸ محمد ساري، الغيث، منشورات البرزخ، الجزائر، 2007، ص 21

⁹ المصدر نفسه، ص 21، 22

¹⁰ المصدر نفسه، ص 23

"كان علي أن أموت حين مات رفاقي في الثورة، حين مات الرجال الكبار"¹¹، وقد حدد أوصاف سياسة العشرية السوداء التي مرت بها الجزائر الكثير من الروائيين الذين واكبوا هذه المرحلة الجديدة، بكل ما تعنيه الأحداث من أوجاع، وصراعات دموية.

ومن هذه الحادثة المأساوية ظهرت رواية المعارضة كبديل عن رواية السلطة التي فقدت هيبتها بعد أحداث 08 أكتوبر 1988، وبذلك فسحت المجال لرواية المعارضة بعد توافر مناخ الحرية الذي أفرزه دخول الجزائر مرحلة اختيارات جديدة، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي، فزالت سياسة الحزب الواحد، وجاءت التعددية الحزبية، وقد رافق هذا المعطى السياسي اعتبار حرية التعبير في الدستور حقاً من حقوق المواطنة، وبهذا أصبح النص الروائي ملزماً بتجديد موقفه مما يحدث، وكما كان الروائي الصوت المعبر عن هموم الجماعة والصادر عن عمقها، كان أول ردود فعله اتجاه ما يحدث هو الوعي السياسي بالمأساة الوطنية¹².

وهدياً على ذلك، لم يجن المسؤولون من وراء إفساد الروح الوطنية إلا ضياع الحلم الذي ذهب أدراج الرياح، حين فقدت الرؤية وجهتها الناجعة، وانكبت على وجهها تبحث لها عن مخرج بلا بوصلة، على الرغم من تساؤلاتها المتشددة: في أي الاتجاه نسير؟ وما السبيل؟ وكيف؟، بعد أن تعمق الجرح، واستبدل اندثار الغاية الوطنية بالحلم الوطني المنكسر، وتوزعت الحقيقة بين الحضور في وهم المعنى المتوخى، والاختلاف المرجأ؛ المحتكر من قبل السلطة المركزية المتعالية بمفهوم دريدا Jacques Derrida؛ الأمر الذي أسهم في اتساع الهوة من قُطر دائرة الاختلاف بين الحاكم والمحكوم، وعمّق هذا النظام - في حينه - تفشي التلف، الذي رسخ الفساد في أرواح معانيه، كما جاء في قول السارد لـ [الباش كاتب]، للروائي أمين الزاوي: "الفساد، الفساد والمال السائب، يُعلّم السرقة، لقد تم إفساد الطبقة السياسية، ثم الطبقة المتوسطة من الإداريين والمتقنين والإطارات، ليصلوا في المرحلة الأخيرة إلى محاولة إفساد أخلاق الشعب كاملاً من خلال شراء الذمم، وزرع ثقافة الطمع فيه"¹³. ولعل القارئ يلمح أن السارد في رواية "الباش كاتب" قد تعمد الخطاب الفانتاستيكي في وصفه الوضع السياسي بهذا المستوى العجائبي، لما فيه من "السخرية والهجاء، وحتى التلميح والاقتباس والتلاعبات اللفظية، والملمهة اللفظية، بوصفها

¹¹ عز الدين جلاوي، رأس المحنة 1+1 = صفر، دار المنتهى للنشر والتوزيع، الجزائر، ط، 1 2001 ص، 70

¹² ينظر، شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، موقع ديوان العرب، الرابط،

<https://www.diwanalarab.com>

¹³ الباش كاتب، ص 64

أمثلة لصنف عام من طرف السرد، فإنها قد تُدعى خطابا مزدوج الصوت، أو تغريبا¹⁴ على النحو الذي رواه السرد عن شخصية "الباش كاتب" في تغريب الواقع وتمييعه بالصوغ اللفظي، وإفساد الخطاب السياسي وتحويله عن مجراه الطبيعي، وربطه بالخيال حيناً، وبالحقيقة مرات عديدة، في إشارة إلى إدغام الواقع السياسي في تجويف نَفَقِي، تحت تأثير إشباع الرغبات بشتى أصنافها، في مقابل إدخال المجتمع في استمرار الارتواء من نقع الخنظل، ومذاق العلقم، ومشقة الحياة المترعة بالهموم والمشاكل؛ بالنظر إلى الغياب الكلي للقرار المخوّل بصلاحيات الشرعية الدستورية السائلة، وإذا كان السرد يؤكد هذه الظاهرة في مضمرات النص بصورة أكثر إجادة، وبأسلوب ساخر أكثر دقة، وحادقة؛ وهو ما أبدع فيه أمين الزاوي حين وظف طرائق التعبير بما يجذب الذائقة بعبارات تحكيمية لاذعة، إدراكاً منه أن "لا رواية عظيمة دون أداء ساخر يدغمها، "إذ" كل شيء ساخر في زماننا"؛ إذا كان الأمر كذلك، فإن السرد يشير بسخرية مُبَيَّنَة إلى ما وصل إليه التسيب في التناوب على اتخاذ المواقف والقرارات التي أصابت المجتمع بالذهول، وأهاجته مما كان يراه ويسمعه أمام مضاعفات إعاقاة السلطة¹⁵

قائمة المراجع:

- آلن غولد شليغر، نحو سيميائية الخطاب السلطوي، ترجمة، مصطفى كمال، مجلة بيت الحكمة، تونس، عدد 5، 1987
- رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، 1993،
- سامح إدريس، المثقف العربي والسلطة، بحث في روايات التجربة الناصرية، دار سامح إدريس، المثقف العربي والسلطة، بحث في روايات التجربة الناصرية.
- شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، موقع ديوان العرب، الرابط، <https://www.diwanalarab.com>
- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، 1981،
- عبد القادر فيدوح، التاريخ والسياسة في الرواية الجزائرية، دار ميم للنشر، 2022،

¹⁴ والاس مارتين/ نظريات السرد الحديثة، ترجمة، حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، 1998،

¹⁵ عبد القادر فيدوح، التاريخ والسياسة في الرواية الجزائرية، دار ميم للنشر، الجزائر، 2022.

- عز الدين جلاوجي، رأس المحنة 1+1 = صفر، دار المنتهى للنشر والتوزيع، الجزائر، ط، 1 2001 .
- مُجَدَّ ساري، الغيث، منشورات البرزخ، الجزائر، 2007.
- والاس مارتين/ نظريات السرد الحديثة، ترجمة، حياة جاسم مُجَدَّ، المجلس الأعلى للثقافة، 1998.